اسم المصدر: الوطن السعودية

التاريـــخ: 16-10-2009 رقم العـدد: 3304 رقم الصفحة: 12 مسلسـل: 95 رقم القصاصة: 1

المحور السعودي المصري السوري وسد الفراغ الاستراتيجي

زيارة خادم الحرمين الشريفين لسوريا الأسبوع المنصرم، هي بشرى لكل العرب، بعودة عقد المحور السعودي المصري السوري لسابق عهده. ونرجو من الله العلي القدير أن تكون إعادة عقد محور الأمن والأمان العربي هذه المرة، عودة استراتيجية لا رجعة عنها

عبدالرحمن الوابلي

كاتب سعودي

alwabli@alwatan.com.sa

اسم المصدر: الوطن السعودية

التاريـــخ: 16-10-2009 رقم العـدد: 3304 رقم الصفحة: 12 مسلسـل: 95 رقم القصاصة: 2

تعتبر المنطقة العربية (الشرق الأوسط) من المنظور الجيوستراتيجي منطقة حيوية هامة بالنسبة للعالم، منذ فجر التاريخ حتى زمننا الراهن. وذلك لوقوعها في قلب العالم القديم، وعليه فهي المتحكمة بخطوط مواصلاته. ومنطق القوة يحتم السيطرة على المناطق الحيوية، للتحكم بها، وحرمان ومنع القوى المنافسة والمعادية من فعل ذلك. والتسابق بين القوى المتصارعة على السيطرة على المناطق الحيوية، يعتبر السبب الرئيسي للحروب والنزاعات بين القوى المتنافسة. وعلى هذا الأساس نجد مناطق معينة ومحددة بالعالم تعتبر بؤر صراع واضطرابات على مر العصور. ومنطقتنا العربية، ولسوء الحظ أو حسنه، تعتبر منطقة حيوية (مهمة جيوستراتيجياً) بالنسبة للعالم وللقوى المحيطة بها، وعليه أحدى بؤر الصراع والتوتر الدائم بالعالم. ولا يمكن أن يستتب الأمن والاستقرار لأي منطقة حيوية في العالم إلا بعد أن تظهر فيها قوة أو قوى محلية تملأ الفراغ الاستراتيجي فيها وتتحكم به وتحميه.

فمنذ أن تكونت القوى القديمة في المنطقة، الفراعنة في مصر والبابلون والأشورين في العراق، والصراع بين هذه القوى الإقليمية محتدم للسيطرة على ما يقع بينها من مناطق حيوية، الشام وفلسطين وشمال الجزيرة العربية. وحتى عندما برزت القوة الفارسية في إيران، دخلت في معترك الصراع للسيطرة على المنطقة المتنازع عليها. وليس بالمستغرب كذلك، أن إنشاء الدولة اليهودية القديمة في فلسطين والقضاء عليها، كان جزءاً من عملية الصراع الجيوستراتيجي بين هذه القوى. وعندما برزت القوى الأوروبية لأول مرة (اليونانية والرومانية والبيزنطية) كانت سيطرتها على المنطقة العربية جزءاً من تثبيت قوتها وتمكنها عالمياً. وعندما أخذت الدولة الفارسية تعيد هيمنتها وسيطرتها كقوة دولية، وتصبح نداً للدولة الرومانية كان ذلك في قدرتها وتمكنها من السيطرة على العراق وجزء من شمال الجزيرة العربية وأخذت تزاحم التواجد الروماني في المنطقة. وعلى هذا الأساس تم التفاهم الفارسي الروماني على أن يصبح العراق وما جاوره مجالاً حيوياً استراتيجياً فارسياً، وتصبح سوريا وما تاخمها جزءاً من المجال الحيوي الاستراتيجي الروماني. وتم إنشاء مملكتي المناذرة في العراق والغساسنة في سوريا، وهما مملكتان عربيتان بالاسم ولكن الأولى كانت تابعة لدولة فارس والثانية كانت تتبع للدولة الرومانية.

وبعد ظهور الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وبروزها كقوة محلية فاعلة، ملأت الفراغ الاستراتيجي في منطقتها الحيوية العربية وأخذت تتحكم به وتحميه، وكانت هذه أول مرة في التاريخ يتم ملء الفراغ الاستراتيجي بالمنطقة العربية بقوة محلية فاعلة ومؤثرة. وعليه انطلقت كقوة حيوية عالمية شرقاً لحدود الصين وغرباً لحدود فرنسا. وهكذا استتب الأمن والاستقرار للمنطقة سياسياً وعسكرياً؛ مما مهد لبزوغ فجر الحضارة العربية الإسلامية التي ساهمت في تقدم ورقي البشرية علماً وحضارة.

وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي، بان ضعف الدولة العباسية وتفككت أطرافها، وأصبح الخلفاء لا يحكمون أبعد من بغداد، وعجزت القوى المحلية المنافسة للدولة عن ملء الفراغ الاستراتيجي، فظهر الفراغ في المنطقة جلياً. عندها ظهرت أطماع دولية لاغتنام الفرصة وملء الفراغ. وتحركت قوى منغولية من الشرق وقوى أوروبية (فرنجة) من الغرب وزحفت على المنطقة. ودخلت المنطقة العربية في قرن من الصراعات الدامية والشرسة أخرجت المغول من المنطقة وكذلك قوى الفرنجة؛ وسيطرت قوة المماليك على مناطق حيوية واستراتيجية وهي مصر وسوريا والحجاز واليمن. وكان دخل دولة المماليك يعتمد بشكل رئيسي على خطوط التجارة الدولية بين الشرق والغرب والتي تمر عبر المنطقة العربية.

وفي القرن الخامس عشر الميلادي، تم اكتشاف رأس الرجاء الصالح من قبل القوى الأوروبية المتنافسة على خطوط التجارة، وأصبحت التجارة الدولية تتحرك عبر البحار والمحيطات متحاشية المرور عبر اليابس العربي. عندها فقدت دولة المماليك دخلها الرئيسي وضعفت قوتها، وكذلك سيطرتها على المنطقة. وكانت آنذاك قوتان إقليميتان ناشئتان، الدولة الصفوية في إيران والدولة العثمانية في تركيا، تطمحان لملء الفراغ الاستراتيجي الحيوي الذي بدأ يظهر، بعد ضعف دولة المماليك. وقد شجع ظهور السفن الحربية الأوروبية في البحر العربي والخليج العربي، الدولة العثمانية لأن تتحرك سريعاً للسيطرة على المنطقة الحيوية قبل أن تسيطر عليها القوى الأوروبية المعادية لها، وتحاصرها استراتيجياً من الجنوب.

فتحركت جيوش الدولة العثمانية لإيران أولاً وحجمت الدولة الصفوية ضمن حدودها، ثم استدارت على دولة المماليك وقضت عليها، وسيطرت على مصر وكامل المشرق العربي، وضمته ضمن حدود دولتها. والتي أصبحت بفضل ذلك تمثل فعلياً، خلافة إسلامية. وهكذا ظل العالم العربي تحت حماية الدولة العثمانية حتى بداية القرن العشرين الميلادي. مع كون أسباب الضعف والتدهور بدأت تنخر بجسد الدولة منذ بداية القرن التاسع عشر، إلا أن القوى الأوروبية الصاعدة والمتنافسة، أبقت عليها كما هي، حتى يتم حسم الصراع فيما بينها لوراثة مناطقها الحيوية الاستراتيجية في منطقتها العربية.

وقد تم حسم الصراع بين القوى الأوروبية والتوصل لتفاهم فيما بينها، بعد الحرب العالمية الأولى، والتي على أساسها تم توزيع المنطقة الحيوية العربية فيما بينها. وقد كان من ضمن الحل الأوروبي لملء الفراغ الإستراتيجي في المنطقة العربية، خلق كيان، ذي ثقافة غربية وبدعم عسكري غربي، وهو الكيان الصهيوني الثاني في فلسطين. وكان ذلك لدواعي ضمان مصالحها الحيوية في المنطقة، في ظل عدم وجود قوة محلية يمكن الوثوق بها أو الاعتماد عليها لرعاية مصالحها الاستراتيجية الحيوية؛ خاصة في ظل ظهور مادة النفط التي أصبحت حيوية واستراتيجية بالنسبة لحاضر ومستقبل دولها. في العقود الثالث والرابع والخامس من القرن العشرين، ظهرت حركات التحرر العربية التي أخذت تناضل من أجل استقلالها من الاستعمار الأوروبي، مما أظهرت فجوة وريبة بين الدول الأوروبية التي أخذت تضعف قبضتها على المنطقة والدول العربية الناشئة، وبنفس الوقت، ترمي ثقلها مع دولة إسرائيل، لتحمي مصالحها بعد خروجها من المنطقة. وبعد أن أنهكت الحرب العالمية الثانية القوى الأوروبية، أخذت تتقوقع بقارتها العجوز، تاركة المنطقة العربية لمصيرها المجهول، خاصة بعد حرب السويس عام ١٩٥٦.

بعد الحرب العالمية الثانية نشبت الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي بقيادة الإتحاد السوفيتي والغربي بقيادة القوة الغربية الناشئة الولايات المتحدة الأمريكية، التي أخذت على عاتقها عملية ملء الفراغ الاستراتيجي في المنطقة والتي أخذت تتخوف من إحلال الاتحاد السوفيتي لملء الفراغ الاستراتيجي الذي تركه فارغاً خروج بريطانيا وفرنسا من المنطقة. وظهرت بعد حرب السويس الجمهورية العربية المتحدة (مصر) كقوة إقليمية، من الممكن أن تملأ الفراغ الاستراتيجي. ولذلك تم دعم إسرائيل بأسلحة متقدمة ومتطورة ومساعدتها على بناء ترسانة أسلحة نووية، للتصدي لأي قوة إقليمية غير موثوق بها، تفكر بملء الفراغ. وتم شن حرب ١٩٦٧، من قبل إسرائيل ضد الجيش المصري وأخرجته كقوة إقليمية يعتد بها.

بعد حرب النكسة، ظهر في العالم العربي أول محور استراتيجي فعال، لسد إن لم يكن لملء الفراغ الاستراتيجي وهو محور السعودية مصر وسوريا. هذا المحور الميمون نجح في التخطيط لحرب ١٩٧٣، واستعادة الكرامة العربية. ولكن لم يستمر هذا المحور طويلاً حيث عقدت مصر معاهدة سلام انفرادية مع إسرائيل. بعدها غزت إسرائيل لبنان وقضت على المقاومة الفلسطينية وأخرجتها من لبنان. وتفجرت الحرب العراقية الإيرانية وتشرذم الصف العربي. وبعدها غزت العراق الكويت وزاد التشرذم تشرذماً وزاد التغطرس الإسرائيلي تغطرسا.

وعاد الحلف السعودي المصري السوري ثانية بعد حرب الخليج الثانية ليلملم الشأن العربي، ونجح في ذلك. ولكن تفكك المحور ثانية بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري عام ٢٠٠٥، وخرجت سوريا من لبنان وتم غزو العراق من قبل الولايات المتحدة وشن أكثر من هجوم إسرائيلي على لبنان والأراضي الفلسطينية المحتلة. إذاً فكل ما التأم عقد المحور السعودي المصري السوري، تتحسن أحوال العرب نسبياً، وكلما انفرط عقده يصبح العرب كالأيتام على مائدة اللئام.

وزيارة خادم الحرمين الشريفين لسوريا الأسبوع المنصرم، هي بشرى لكل العرب، بعودة عقد المحور السعودي المصري السوري لسابق عهده. ونرجو من الله العلي القدير أن تكون إعادة عقد محور الأمن والأمان العربي هذه المرة، عودة استراتيجية لا رجعة عنها. حيث هو الأمل الوحيد والمتبقي للعرب لملء الفراغ الاستراتيجي في منطقتنا والذي إذا لم يسد فراغه في هذا المحور، فالقوى الإقليمية غير العربية والدولية ستفعل ذلك. أي إذا لم نملأ هذا الفراغ في منطقتنا فسيملؤه غيرنا شئنا أم أبينا. وهذا ما أخبرنا به تاريخ منطقتنا الجيوستراتيجي المرة تلو المرة منذ أكثر من سبعة آلاف سنة.